وآخرين يسألونه عن أهم كتب التاريخ التي يجب عليهم أن يقرأوها.

اجتهدتُ في البحث عن الشابين الصغيرين اللذين كانا بجانبي،

ألفيتهما منشرحي الفؤاد بحديث الرجل، فبادرت صاحبنا قائلا: «لم أُشأ أن أَردَّ عليك ما قلتَه عن الشيخ في حينه، وتركتك لعلمي بقدر الرجل، وليقيني أنه سيأسرك كما يأسر الآخرين، ولكن لابد لك من التعلم أن الحكم علىٰ الشيء فرعٌ عن تصوره؛ فلا تجعل المظاهر تخدعك، ولا تجعل اللحية مقياسًا لدين أحدٍ»..

اعتذر الشاب بأدبٍ جمٍّ.. وانصرفتُ مع الدكتور، فقصصتُ عليه ما كان من أمر الشاب، فضحك ملء وجهه.. وطافت معنا السيارة في شوارع القاهرة الحميمة نتحدث عن ترشيد الصحوة الإسلامية ومعالجة أخطائها..

الكثيرةُ.. والجمَّة..

لكن.. من يسمع.. ومن يعتبر؟!

البحث عن إنسان

«وأعطينا الإسلام فتات أموالنا وجهودنا، وخدعنا أنفسنا ببعض النوافل، وانفصلنا عن أسلافنا الذين تعاملوا مع الإسلام بالعقل والقلب والوجدان كله»

عبثًا حاول مولانا إقناعي بشراء الهاتف الجوَّال الذي أصبح أمرًا لازمًا بعد أن كان من الكماليات، لكني كنت حسمت أمري ألا يكون لي جوَّال ما حييت، متمثلا في ذلك مذهب الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذي سألته مرة عن أرقام هواتفه فأعطاني إياها ممتنًا، وليس من بينها رقم جوَّال، فلما سألته عن ذلك قال:

«لا أحمله، فالشيطان ينصرف بالاستعاذة منه، أما هذا الجهاز فلن تُجدي معه الاستعاذة ولا الأدعية المأثورة والمنثورة».

زد علىٰ هذا أن معظم معارفي لم يكونوا يحملونه حينها إلا لداعي التباهي والمَنْظَرة، ناهيك عن الرنات التي لا تكف.

رنات فقط! والويل لمن يفكر في فتح الخط علىٰ الآخر.. فعندئذ وقعت الواقعة.

كان اقتنائي للجوَّال يعني بقائي أسيرًا لمولاي طيلة الوقت، فما أيسر الهروب من الهاتف المنزلي عند تعكر مزاجي دون أية تبعة عليَّ، لكن وجود هذا الجهاز يعني أنه سيتصل بي حتىٰ أقرب الآجال: أن أَرُدَّ، أو تفصل البطارية، أو يفصل الله بيننا!

لم يجد الرجل سبيلا إلىٰ إقناعي بهذا الأمر حتىٰ فوجئت به ذات ليلة ينزع شريحته من جوَّاله ماركة Nokia ويدفع به إليَّ طالبًا مني شراء خطٍ لنفسي.

حاولت الاعتذار، بيد أن الاعتذار لم يك مجديًا، فقد سبق السيف العذل، وغلبت ديكتاتوريته مراوغات تلميذه وحِيَلَه.

وهكذا توطَّدت علاقتي به أكثر فأكثر رغمًا عني.

***

بلغ حبي للرجل أني دخلت غرفة العمليات لإجراء عملية جراحية في الأذن الوسطىٰ وخضعت للتخدير، كنت أنادي وأسأل عن الدكتور عويس، فظنَّ صديق العمر أحمد يحيىٰ أنني ما أزال في وعيي، فاتصل به ليجده خارج مصر، فلما فارقني أثر المخدِّر أبلغني بأنه غير موجود في مصر، فقلت: أعرف.

فقال: فلم طلبت مني الاتصال به؟!

فنفيت ذلك بشدة، فضحك أحمد وضحكتُ، وقلت: يبدو أن المخدر قد شملك أنت أيضًا!

***

رأيتُ في الرجل صورة العالم العامل، فلم يك يكتفي كغيره بالكتابات والخطب الرنانة التي تهز كل شيء إلا صاحبها، وتُحرِّك كل شيء إلا ذاته، وإنما يطرق أبواب الخير لكل الناس، من عرف منهم ومن لم يعرف، ويكفي أن يُذكر أمامه أن شخصًا ما لديه مشكلة- ولو في بلاد الواق واق- فعندها لابد من تقديم العون مهما غلا ثمنه،

وليتخيل القارئ أنه كان يتبرع بكثير من ماله للمسلمين في أفريقيا وآسيا..

حدث ذات مرة أن طالبًا نيجيريا من الذين تخرجوا من الأزهر وعادوا إلىٰ بلادهم كان في زيارة لمصر، فعلم مولانا من سياق حديثه أن مسجدًا لديهم بلا سقف، فسأله علىٰ الفور: وكم يحتاج لاستكمال مبانيه؟

وليته انتظر الإجابة!

بل دخل إلىٰ غرفته، وعاد بمبلغٍ كبيرٍ يتعدىٰ تكلفة السقف.

***

وربما حمل له الهاتف مكالمة من أحد رجال الأعمال مطمئنًا عليه- وما أكثرهم- فعندها يكون حريصًا علىٰ سؤاله: هل تحتاج إلىٰ أية وظائف في المصنع أو الشركة؟! فإن تيسر له ذلك أمسك الأجندة الحمراء واتصل بمن يعرف ليسأله عن العاطلين، وكثيرًا ما كان يتصل ليسألني:هل عندك محاسب؟ عامل بوفيه؟ عامل نظافة؟

لم يكن يستنكف عن مثل هذه الأمور.

وبهذا الحرص كان سببًا قدَّره الله في عمل الكثيرين سواء في داخل مصر أو حتىٰ في خارجها.

كنت ممن شملهم بترشيحه لي للعمل مستشارًا للنشر في مكتبة العبيكان الشهيرة بالرياض، وكان صديقه المفكر السعودي الدكتور عبد العزيز الثنيان قد طلب منه شخصًا للعمل في هذه الوظيفة، فرشَّحني رغم حاجته المُلِحَّة إليَّ- حسب تعبيره- وقال له: بالرغم من حاجتي إليه إلا

أنني لن أقف حجر عثرة في طريقه؛ فهو يستحق كل خير.

قابلت الدكتور الثنيان في القاهرة، ظللتُ جالسًا معه لما يزيد عن الساعتين نتكلم عن العقاد والزيات وطه حسين والرافعي، حتىٰ اطمأن الرجل إلىٰ صلاحيتي، فأراد أن يُوقِّع معي العقد في حينها، ولكني طلبتُ منه إرجاء ذلك حتىٰ أستخير وأستشير، غير أن الرجل كان في عجلة من أمره، ووافقت في اليوم التالي وبدأت إجراءات السفر، وجاء اليوم الموعود فاتصل الدكتور الثنيان من السعودية، يبلغني بوصول التأشيرة..

حينها أحسست أن الدنيا تدور بي..

فلمن أترك والدايَ وأنا وحيدهما؟!

نعم، هما يحاولان أن يبدوا متماسكين أمامي، ولكن الحقيقة أنهما لا يرغبان في هذا الأمر، أما أستاذنا الدكتور فقد ترك لي الأمر لآخذ قراري بنفسي، وإن كان يتمنىٰ في نفسه ألا أسافر (هكذا قال لي بعدها).. فكان أن اعتذرت إلىٰ الرجل في اليوم التالي مما جعله يستشيط غضبًا.. وبقيت مع الدكتور عويس، ففرح لذلك، ودبَّت الحياة مرة أخرىٰ في أوصال والديَّ.

وكان هذا العمل من نصيب صديقي العزيز- فيما بعد- الدكتور ياسر غريب.

***

هنالك..

أمام مسجد نوري خطاب بالحي السابع بمدينة نصر، كان يجلس دائمًا رجل كهلٌ ليس بالعجوز، صبوح الوجه، وضَّاء الطلعة، ذو لحية

بيضاء مهذبة تُضفي عليه وقارًا وبهاءً، فما مَرَقْنا من هناك مرةً إلا نزل إليه شيخنا، وجاد بما أفاء الله عليه، وكم كنَّا نُغيِّر خط سيرنا من شارع عباس العقاد أو مكرم عبيد لِنَمُرَّ بالرجل..

آخر مرة رأيته فيها عندما حمل الدكتور إليه مبلغًا كبيرًا ليساعده في تجهيز ابنته..

رحمه الله، علمتُ بموته هو الآخر.

ويحكي لي الصديق محمد الحداد أنهما كانا يسيران في ليلة رخامية باردة بشارع ذاكر حسين بمدينة نصر، فأمره الدكتور بالتوقف، فإذا به ينادي إحدىٰ السيدات وقد وقفت بانتظار سيارة أجرة: تعالي يا حاجة رايحة فين؟! فأخبرتْهُ بأنها ستنزل في مكانٍ قريبٍ بالحي السادس.

ركبت السيدة ممنونة.. لم تنطق بكلمة، ولكنه أحسَّ بفراسته أنَّ أمرًا ما حَزَبَها، فبادرها بالسؤال: مالك مهمومة كده يا ستِّي؟!

انفجرت السيدة بالبكاء، فما أخرجتها إلا الحاجة المُلحَّة، إنها تعول أربعة من اليتامىٰ.. مات أبوهم وتركهم نهبًا للحياة ونهشًا للصروف وبنات الدهر.

إنها تجهز فتاتها للعرس، وتحتاج إلىٰ ستة آلاف من الجنيهات لتستكمل جهازها.

هدَّأ الرجل من روعها، وكعادته دسَّ يده في جيبه ليخرج لها مبلغًا طالبًا منها أن تترك عنوانها ووسيلة الاتصال بها، وفي اليوم التالي أرسل إليها من يستقصي حالتها..

كانت من سكان منشية ناصر حيث الثلاثي الذي أذل المصريين (الفقر، الجهل، المرض) ، جاءه الرسول ليخبره بما كان من شأنها.. فما لبث أن أخرج إليه الآلاف الستة وزيادة ليدفع بها إليها.

وهكذا الرجل يبحث عن سعادة الآخرين مَنْ عَرَفَ.. ومَنْ لَمْ يَعْرِف.

واستدعاني ذات ليلة مطيرة، فوجدت لديه مجموعة من الحواسب المحمولة (اللاب توب)، وقال: اخترْ لك واحدًا ووزع الباقي، قلت لكني لا أحتاج إليه فلديَّ جهاز، قال: فهل لديك صديق يحتاج إلىٰ جهاز بالتقسيط المريح؟! قلت: اللهم نعم، لديَّ صديق أخاله في حاجة ماسَّةٍ إليه.

هاتفت صديقي فرحَّب بذلك كثيرًا، وشرع في إرسال الأقساط.

لم ينته من سداد الثمن، فقد أمرني مولانا بأن يكفَّ الرجل عن الدفع وتبرَّع بباقي المستحقات.. ثم تبين لي أنه اشترىٰ هذه الأجهزة من محل لأحد تلاميذه تشجيعًا ودعمًا له..

ويحكي الصديق والكاتب الصحفي جمال سالم أنه رافقه في سيارته ذات مرة أثناء عودته من تسجيل حلقة لصالح إحدىٰ الفضائيات، فتطرق بهما الحديث إلىٰ المهمشين والمعذبين في الأرض، وحياة البؤس التي تعيشها قطاعات عريضة من المصريين، فحدَّثه جمال عن أحد عمال اليومية في بلدته أُصيب بالشلل التام أثناء عمله فلم تكترث له الدولة؛ لأن لديها مَنْ هم أولىٰ بالرعاية كالفنانين ولاعبي الكرة، فإذا به يُخرج المكافأة التي تقاضاها نظير الحلقة

وقدرها خمسمائة جنيه، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ويطلب منه توصيله إليه.

كان البعض يشكر له صنيعه معه، بينما يقابل البعض هذا الإحسان بالإساءة، وهو ما كان يغضب مولانا سريع الانفعال– لاسيما بعد مرضه بالكبد–، لكنه سرعان ما يعفو ويصفح.

وفي ليلة جلس غاضبًا يُحَوْقِل ويَسْتَرجع، فسألته: ما بك يا أستاذنا؟! فحكىٰ لي طرفًا من موقف حدث من بعض مَنْ يَمُدُّ إليهم يد العون، وبدلا من مقابلة ذلك بالإحسان أساءوا ولم يبروه، ثم أقسم ألا يعطف عليهم جرَّاء عملتهم، فما كان مني إلا أن قلت له: لكن يا مولانا ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ.. ﴾ [النور:22]

وهنا تذكَّر الرجل، وقال مقولة لا أنساها: والله يا أخي هزمتني بالآية دي.

رحمك الله يا مولاي، كم كنت رجَّاعًا إلىٰ الحق.

رحمك الله سيدي كما كنت نصيرًا للفقراء، وعضدًا لأصحاب الحاجات والضعفاء.

ها أنذا من بعدك أغدو في الطرقات والسبل..

أُفتش عن وجهك في كل الوجوه، وأبحث عن ذاتي في ذاتك...

أبحث.. عن إنسان!